

المعنى الإيجابي للحرية الإنسانية



الحرية هي قدرة المرء على الاختيار، ولا شك أن الحرية أصل محمود يتوق إليه الإنسان بطبعه، وأن العبودية وصف مذموم ينفر منه المرء بفطرته، فالأولى أقرب إلى العدل والإنصاف، والثانية أقرب إلى الظلم والإجحاف، والناس قد ولدتهم أمهاتهم أحراراً، كما قال الإمام الحسين (عليه السلام): «كونوا أحراراً في دنياكم». كانت العبودية قديمة قدم الظلم ولم يأت بها الإسلام، بل وجدها أمامه من رواسب الجاهلية فأراد أن يقضي عليها بالتدرج، ووضع لها حلولاً منهجية معروفة. وأكثر من هذا وذلك فقد جعل الله تعالى تحرير الأرقاء عبادة، حيث قال تعالى: (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ) (البلد/ 16-11).

دعا الإسلام إلى العدل والمساواة بين الناس جميعاً، فلا تفاضل بين الناس إلا على أساس تقوى الله تعالى، ولا يكون التفاضل أبداً على أساس العرق أو اللون أو الجنس، فقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «يا أيها الناس! ألا إن ربكم عز وجل واحد، ألا وأن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ألا لا فضل لأسود على أحمر إلا بالتقوى، ألا قد بلغت؟ قالوا: نعم، قال: ليبلغ الشاهد الغائب». وقد كفل الإسلام الحرية للإنسان وحماه من الظلم والاضطهاد، كما نصت على ذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. قال تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَا هُمُ فِي الْبَيْرِ وَالْبَيْحَرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَيَّ كَثِيرًا مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) (الإسراء/ 70). ومما لا شك فيه أن الحرية جزء لا يتجزأ من ذلك التكريم وقال: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) (التين/ 4). وإذا كان الله قد خلق الإنسان في أحسن تقويم فليس من المعقول أن يفرض عليه المذلة والاسترقاق. وهذا ما بينه القرآن في آية أخرى حينما ضرب لنا مثلاً في قيمة الحرية فقال: (ضَرَبَ الْبَلَاءُ مَثَلًا لِّعِبَادٍ مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ) (النحل/ 75).

فالإنسان وفق الرؤية القرآنية، ومنطق العقل الإسلامي، يجب أن يكون مختاراً وحرراً، ليكون مسؤولاً،

وليجري عالم الإنسان وفق عدل الله تعالى، فلا مسؤولية بلا حرّية، قال تعالى: (وَهَدَىٰ نَهْجَهُ النَّجْدَ يَنْبَغِي) (البلد/ 10). (إِنَّ نَهْجَهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكَرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (الإنسان/ 3). وهكذا تتلازم الحرّية والمسؤولية في العقيدة الإسلامية، وفي الفكر الإسلام، وهكذا تكون قيمة الإنسانية في كونه حرًّا مسؤولاً. نعم، لقد خلق الله الإنسان حرًّا، وخلق بني آدم أحراراً، ليسوا بعبيد للعبيد، وهذا هو الأصل فيهم، والله عزّ وجلّ أعطى الإنسان إرادة، ومشئته، واختياراً، فليس العبد مجبوراً على عمل، وإنّما هو حرٌّ في اختياره ومشئته، قال الإمام عليّ (عليه السلام): «لا تكن عبد غيرك وقد خلقك الله حرًّا».

وقد فرض الله عزّ وجلّ الجهاد دفاعاً عن الحرّية ونصرة للمظلومين والمستضعفين في الأرض، فقال تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيُحِلُّونَ لِنَفْسِهِمْ مَا كَانَ حَرَامًا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْ يُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يُذَلَّوْا وَلَا يَفُوتُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) (الحجّ/ 39-40). (الْحَجُّ) (الحجّ/ 39-40).

يستوحى الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) من الآية الكريمة: (وَالَّذِينَ ظَلَمُوا فَلِيهِمْ جَزَاءُ ظُلْمِهِمْ) (المنافقون/ 8)، فيقول (عليه السلام): «إنّ الله عزّ وجلّ فوضّ إلى المؤمن أُموره كلّها، ولم يفوض إليه أن يكون ذليلاً، أما تسمع قول الله عزّ وجلّ يقول: (وَالَّذِينَ ظَلَمُوا فَلِيهِمْ جَزَاءُ ظُلْمِهِمْ) (المنافقون/ 8)، فأنت لست حرًّا في أن تذلل نفسك وأنت مؤمن، فقصّة عزّتك تنعكس على قصّة إيمانك، وبذلك يكون الذلّ حركةً سلبيةً في معنى الإيمان.